

القرآن الكريم ومخاطبة النفس البشرية

إن المتتبع لطرائق القرآن في مخاطبة النفس البشرية، وكذلك طرائق الجدل مع المعاندين سيلاحظ أن تركيز الخطاب هو على استشارة الفطرة وتذكيرها بخالقها لأنها مهيأة لذلك ومهيأة لأن تهتدي إلى أصول الاسلام، وكذلك يتوجه الخطاب إلى العقول التي لا يليق بها أن تكون بعيدة عن البديهيّات، ولا تكون بعيدة عما يؤكد القرآن من حقائق.

الفطرة السليمة لا تصاب بالدهشة عندما تسمع ما يريده القرآن وما يقرره من التوحيد ومن نشر الفضائل وتقبيح الرذائل، وإدانة الفساد والظلم. فقد زودت هذه الفطرة ببصيرة أخلاقية {بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره} (القيامة : 14 - 15)

هذه الفطرة السليمة والعقول المستعدة للتفكير هي قوى موجودة ولكنها بحاجة إلى الوحي كي يوجهها إلى الصواب دائماً، وإلى الطريق الأعدل، كي يوقظها من سباتها ويحفزها للعمل، ولذلك يدعو المسلم في كل صلاة (**اهدنا الصراط المستقيم**) ولكن إذا اختفت هذه القوى وهذه الأسس أو أصابها الغشاوة على أعينها، فإن القرآن لا يؤثر في أصحاب القلوب الغلف والأذان الصم، بل إن أصحاب هذه القلوب إذا سمعوا القرآن ازدادوا بعدا وعنادا فالبناء لا يعلو إذا لم توجد اللبنة المرصوفة، وقد تفقد الأرض التي يشيد عليها البناء، فالقلوب أوعية متفاوتة جدا، ورؤيتها للحقائق والاستفادة منها متفاوتة جدا أيضا.



الفطرة السليمة لا تشك في وجود الله سبحانه وتعالى {قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض} (إبراهيم : 10)
والقرآن الكريم يحث الانسان ليستعمل عقله ويرى الأمور بشكلها الصحيح، ويفكر في الحقائق المعروضة ، قال تعالى مبينا
ضعف عقول المشركين {واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون
موتا ولا حياة ولا نشورا} (الفرقان : 3) وقال تعالى داعيا الانسان الى التفكير في هذه الظاهرة الواضحة التي لا مفر منها {ومن
نعمره ننكسه في الخلق أفلا تعقلون} (يس : 6) “ومن طرائق القرآن أن يبدأ بالحجج المنطقية والبرهان العقلي ثم يتدرج إلى
الإنذار والتوبيخ وبيان فساد ما عليه الكفار وأهل الباطل، قال تعالى على لسان ابراهيم عليه السلام {إذ قال لأبيه يا أبت لم
تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا، يا أبت إني أخاف أن
يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا} (مريم : 42-45) ” [1] وقد أوقف القرآن المشركين على اضطراب
عقائدهم وتناقض آراءهم {والذين تدعون من دونه لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، أموات غير أحياء} وقال موضحا
تناقض أهل الكتاب ومغلطاً لهم طريقة تفكيرهم في ادعاءاتهم غير المعقولة {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه
قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر مما خلق} (المائدة : 18).

ومن أنواع المحاجة والجدال بالحق أن يقال للإنسان : أين المذهب وأين المفر ، فإنك أيها الإنسان محاط بسنن الله
الكونية وما خلق في السماوات والأرض ، هل تستطيع أيها الإنسان أن تخرج عن هذه السنن ؟ وهل تستغني عن فضل الله
وتسخيره كل شيء لك، أي أن القرآن يحيل البشر للنظر في الأمر والواقع. قال تعالى {وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك
المشحون وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون} (يس: 41) وقال تعالى {من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا
والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ } (الحج: 15) وقال تعالى (لقد كفر الذين قالوا
إن الله هو المسيح ابن مريم، قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا)
(المائدة : 17).



ويدحض القرآن الكلام المتناقض الذي ليس عليه أي دليل، والواقع يدفعه ويكذبه، بل هو من المستحيلات كاتهام قريش - وكذلك بعض **المستشرقين** اليوم- للنبي ﷺ أنه تعلم من أناس من أهل الكتاب كانوا في مكة، {وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درّست، ولنبينه لقوم يعلمون} (الأنعام : 105) أي قرأت على غيرك وتعلمت منهم، قال تعالى {ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذين يلدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين} (النحل: 103) فإذا كان العرب الأقحاح وقفوا حائرين أمام فصاحة القرآن وإعجازه البياني، وقد تحدّاهم أن يأتوا بمثله أو بسورة مثله، هذا وهم الفصحاء البلغاء الذين يعرفون مكانم البلاغة في القول فكيف يتعلم الرسول ﷺ من عبيد من الروم كانا في مكة؟! هذا كلام متهافت لا يقوله إلا معاند صاحب هوى.

وإذا كانت هذه البراهين والحجج العقلية لا تنفع مع بعض الناس فإن القرآن الكريم يقول لهم: انتظروا المستقبل لتروا بأعينكم النتائج والمصير، وستعلمون عندئذ الحقائق {قل كل متربص، فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى} {طه: 135} {وكذب به قومك وهو الحق، قل لست عليكم بوكيل لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون} (الأنعام: 66) وقال تعالى حاكيا قول الكفار وراذلاً عليهم {أنزل عليه الذكر من بيننا، بل هم في شك من ذكري، بل لما يذوقوا عذاب} {ص: 8} “أي لو ذاقوه لتحققوا أن هذه الرسالة حق، أي هم لجهاالتهم لا يستعلمون النظر ولا يستفيدون منه، ولكن يتضح لهم الحق عند مباشرة العذاب” [2].

وقد يستعمل القرآن أسلوب الرجوع إلى التاريخ ومعرفة مصير الأمم السابقة ليكون ذلك مثار التأمل والعبرة وأن السنن واحدة لا تتبدل، فما حصل سابقا يمكن أن يحصل لاحقا، (أو لم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكانهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين) (الأنعام: 6).

[1]- انظر ابن سعدي ، القواعد الحسان لتفسير القرآن / 3

[2] - تفسير ابن عطية